رحلات فى ديار الشام فى القرن الثامن عشر الهجرى :

٤ ـ اردان حلة الأحسان

فى الرحلة إلى جبل لبنان

لمصطفى البكرى الصديقى

(١٠٩٩ هـ — ١١٦٢ هـ — ١٦٨٧ م - ١٧٤٨ م)

للأستاذ أحمد سامح الخالدى

« تتمة »

إتمام البئر وانتشار الطاعون :

وبعد ما تم بناء البئر أردت أن أدخله فى الحضير ، فشرعت فى تقتيم الستارة ، وابتدأنا يوم الاثنين فى العمارة ، وكان أفرط عند الطاعون ، أحوج لاستعمال ما فى الماعون ، وتمرض الأخ محمد سعيد ليلة الثلاثاء بوارد شديد ، وما زال الأمر يزيد إلى أن اصطفاه إليه ليلة السبت الحادية والعشرين من ذى الحجة شهيد ، وترجمته فى كراسة وسميتها (العقد الفريد النضيد فى ترجمة محمد سعيد) وحصل له مشهد فريد ، ودفن فى مأمن الله .

سنة ١١٤٥ هـ

ولما دخل عام (١١٤٥ هـ) توجهنا والأحبة على عادتنا للزيارة [مقام على بن عليل شمالى يافا] وأقمنا بعد ما قطعنا بلاداً مع السيارة وبقنا لدى المزار ليلتين ، ومنه أتينا بعد التنزه فى المروج ذات الزهور ، مع الجوع قرية (كور)وكنا نخلصنا بامداد الشكور، من الحمى ذات العبور ، إلى نجوم الجسد المتخور ، وعطفنا على (نابلس) المحروسة ، ولم ننزل إلا الدرويشة ، لاتساع مبرور ، وكان الحاج حمدان ، قصد جامع النصر المعمور ، والخلوة التى لديه وأذنا لولده الشيخ يوسف بالحضور ، وسرنا بعد إكرام تام ، وما زلنا بالبداءة والختم بالأوراد إلى أن وصلنا المنازل المقدسة . وكنا قد أكدنا مع الأخ الحاج حسن مقلد أمر الحج ، ورجونا أنا بعقد جواهره نتقلد ؛ وفى أوائل رجب جاءنا رجل مغربى سمى نفسه محمد السابع ، وزعم أنه عائم فى بحر المعارف سائح ، وحدثنا بعجائب من بنيات صدره ، ووعدنا مواعيد عرقوب صانها فى قدره .

وحين اشتد العزم على السير نحو الحجاز ، وصله مودعاً إلى جيوض (السيلة) وفارقناه . وذكرت ما وقع فى هذه الحضرة الكريمة فى رحلة سميتها (الرحلة الإحسانية الحجازية الثانية) ولما عدنا إلى الديار المقدسة صحبنا الأخ الشيخ محمد الكتبى الحلبى وكان بعد ما توجهت من حلب للقدس أرسل كتاباً للفقير مطلعه :

ذاب من حرّ فؤادى جسدى وغدا فودى بياضاً مفعما

وبعد ما زار الأنبياء العظام والأولياء الأماجد ، أقام لدينا نفسه مسلماً مصاحباً منادماً متيماً ووالهاً فى حبه هياماً ، وفى أثناء إقامته ، ورد أول كتاب من الأخ مصطفى اللقيمى مطلعه :

وأمتيت المسجد الأقصى وللحرم

بعد انقضاء أداء النسك بالحرم

وقد ذكر فيه أنه أحرم ، ثم دخل من باب السلام ، وطاف بالكعبة سبعاً ، وأسرع إلى عرفات ، وبات بمزدلفة ، وأصبح فى المنى ، ثم رمى بالجمرة ، ثم قدم مكة وطاف طواف الإفاضة ، ثم سعى ، وحلق ، ومضى لمضيء عمرة ، وختمها بطواف ، وسعى وتوجه تلقاء مدين قرب جدة ، وعاد إلى المسجد الأقصى .

« ولما أقام الأخ الشيخ محمد الكتبى مدة أيام ، وتلقن بعض أسماء حضر من الشام صديقنا الشيخ عبد الرحمن السمان ، ومكث قليل أيام وزار المشاهد ، وبعدها هم على الرحيل لوطن المقام وعزم على السير معه الأخ الكتبى فكتبت له أجازة بالإذن كما أرسل أجازة للأخ اللقيمى .

سنة ١١٤٦ هـ

ولما هل شهر رجب ١١٤٦ هـ ورد علينا الأخ الحاج ابراهيم بن حسن البكائى الحرستانى ، وحرستى بلدة سيدى محمد بن الحسن صاحب النعمان (الربانى) ومعه رفيق من أهالى (بيت سوا) يدعى عبد الغنى ، وبعد أيام دخل الخلوة ، ثم تشفع برجوعه بابنتى علماً فقبلت شفاعتها فيه ، وأجزته لما مدة إقامته انتهت .

وفى أواسط شعبان طلب الأخ الشيخ عمر المنبوسى عمل

معراج نبوى مختصر مسمياً له (اليم الغدا المواج فى ذكر أحاديث الإسرا والمعراج) وشرعت فى تسويد شرح على المنفرجة المنسوبة لأبى عبد الله النحوى ، وكان ذلك عن طلب السيد على الحنفى ، وسميته (الفقه النضيد المشيد الحجة ، على القصيدة المسماة بالمنفرجة) وقابلته مع الشيخ محمد بن السيد عيسى الكردى ، وأرسلته مع الشيخ المذكور ، إذ مراده المسير إلى تلك القصور .

وكنت بعد العود من الحج بأشهر وأيام أرسلت للأخ الشيخ محمد الحفناوى [فى مصر] أجازة وإذناً عاماً بالإرشاد . وقد وردنى فى أواخر ذى الحجة منه كتاب جواباً على كتابى والأجازة .

صدور خط سلطانى باصلاح قناة الماء للحرم القدسى :

وفى أوائل سنة ١١٤٦ هـ صدر خط سلطانى معرباً معجمه بأن الوالدة أثابها الله فى الجنان ، انتدبت لعمارة ما يلزم القناة القدسية ، فعينت أحد أعيان الدولة ، ووجهت له ما يحتاج إليه فوفد بصوله والمذكور (قبله لى زاده) فتوفى قرب حصول ما أراده ، وكان حسن النية والإرادة ، ثم ورد مباشراً على أغا بن حمود ، وبعد تمام بعض نظام رجع لوطنه للزهو بقود ، وكتب أهل الولاية له محضراً بما جرى ، شاهدين فيه أن ماء الكأس لمحله جرى ، وجعل للناس فرج وفرج .

سنة (١١٤٧ هـ) وفاة الشيخ محمد الخليلى :

وكان ورد على كتاب من الأخ الشيخ مصطفى أسعد اللقيمى فى عشرين محرم سنة (١١٤٧ هـ) مصدراً بقصيدة ثانية مطلعها :

عيون بنى الصديق بالصحو قدّت
عيون أولى التصديق بالمحو قدّت

وفى أواخر ربيع الأول أرسلت كتاباً للأخ الشيخ مصطفى العمرى مصدراً بقصيدة :

أيها المصطفى من الخلان كن بمولاك داعياً للعيان

واجتمعت ليلة الحادية عشر من شهر ربيع الثانى (سنة ١١٤٧ هـ) بالشيخ يس الغزى الخلوتى ، وكان الأخ الشيخ إبراهيم الشهير بابن صفر أغا أخبر أنه كان منكراً عليه ما يظهر منه من مخالفات تنسب إليه حتى استبان له الأمر فانقاد وزاد منه فيه الحب والاعتقاد .

وفاة الشيخ محمد الخليلى :

وفى منتصف جمادى الثانى ليلة الخميس ، انتقل شيخنا العالم العامل المحدث الفقيه الشيخ محمد شمس الدين أبو الوفاء الخليلى[1] إلى المقام الأرفع ، فكانت ليلة ليلاء على أهل إيلياء ، كان رحمه الله جاور فى الجامع الأزهر ، ثم ورد إلى بيت المقدس ، فانتفع به أهلها ، وقد أخذت عنه الإجازة فى الحديث سنة ١١٢٢ هـ لسند عال ، ثم تأكدت المحبة بيننا وبينه لتكرر الخطرات القدسية ، ثم نمت وزادت سنة (١١٣١ هـ) لتأهل فى الديار القدسية ، وقد ذكرته فى النحلة النصرية فى الرحلة المصرية) وقد تكررت صحبته فى زيارة الخليل ، والكليم ، وقلت مرتجلا فى امتداحه :

أيها الذات فى حمى الذات قبلى فلقد لذّ لى لديها مقيلى

وبعد وفاة الشيخ بثلاثة أيام اندرج بالوفاة إلى رحمة الله صديقنا الشيخ برهان الجعفرى الرفاعى الخليلى الأوطان ، وكان المذكور اجتمع علينا فى ثانى خطرة للزيارة الخليلية وأظهر المحبة كأخيه الشيخ أحمد السابق للمنازل الإحسانية ، وقد ظهرت لهما على أخبر به بعض أتباعه ، كرامات تعرّف بمقامه .

وفى أواخر هذا الشهر ورد على كتاب من الأخ اللقيمى وفيه :

شوق إلى علينا جنابك طافح أخفيه وهو خفى سر فاضح

فأجبته بكتاب :

للعارفين خواتم وفواتح أنداؤها فى العالمين فوائح

وفى أوائل شهر رجب شرعت فى عمل مقامة مشيرة لفن الأدب سميتها « المدامة الشامية فى القامة) أودعت فيها من القصائد الجامعة ، وشرعت فى أخرى (مغربية) وسميتها (النغمة الغربية فى القامة المغربية) .

ثم شرعت فى شرح قصيدة الإمام الحجة صاحب المنهاج .

الرحلة إلى الديار الرومية :

وفى ذى الحجة تحرك الخاطر إلى الديار الرومية ، وما زال

---

(١) هو صاحب الفتاوى الخليلية على المذهب الشافعى كبرى فى مجلدين وصغرى فى مجلد ، ترجمه حسن بن عبد اللطيف الحسينى فى كتابه « تراجم أهل القدس فى القرن الثانى عشر » وقد أخذ عنه المرادى . عمر جامع يافا الجديد ، واسترجع مقام النبى شمويل من اليهود ، وهو المجلد الثامن لأم كاتب هذا المقال .

العزم يتقوى إلى أن دخل محرم ، فتوجهت إلى الشام لأجل أن يكون السير مع ركب الحجاج ، وشرعت فى الرحلة الرومية الثانية وأسميتها (الحلة الثانية الدانية ، فى الرحلة الرومية الثانية) وعدنا منها ثانى يوم من شهر الصوم .

مرضه ابنته علما ووفاتها :

وعدت فوجدت بنتى المحمية لسرى وقلبى ، القربة إن شاء ربى ، متمرضة بأمر جرئى ، فقاد كابأ ذيله طويل ، وبعد أيام غابية لا قليلة ، أحبت مجاورة مولاها بنفس ذليلة . فحصل بفراقها ألم مؤلم ، وذلك فى الليلة التاسعة من شهر رمضان .

وترجمتها فى رسالة أسميتها : (الغيوب الملجمة ، والغيوث المسجمة ، فى ترجمة ابنتى المتفية قدراً سما ، الشريفة الصديقة العباسية علما) وقد كتبت على شاهدة قبرها مؤرخاً :

قصر الجنان من يدى جدى هنا تسلما
رضوان ربى دائما يهمى عليها كالسما
وما زالت المدامع بعد بعدها سخية إلى تمام ذلك العام

سنة ١١٤٩ ﻫ البرو بسلبورد الشيخ التافيلتى :

وبعد دخول العام الجديد سنة ١١٤٩ ورد علينا الأخ الشيخ محمد التافلاتى ، وأخبر أنه جاءنا على طريق التيه وأخذ منه أعراب الطريق بعض أثواب ، وكتاباً من الصديق الشيخ محمد الحفناوى وفى أوائل شهر ربيع شرعت فى تأليف مولد نبوى وسمته (المولد الدرى فى المولد النبوى) وقرأته ليلة المولد على الإخوان متبركا

وجاءنا فى هذه الأثناء السيد على من بيت كريم الدين صاحب الجدود الفاخرة ، والحسب ، وكان مجيئه فى جمادى الأول بعد ما طلع لأرض الروم ، ونزل وتوجه من القاهرة ، بوجوه غير سافرة ، ووصل إلينا مفصول المرا ، كن قرا ولكنه ما درى ، وكنت أرسلت للأخ الشيخ محمد الحفنى كتاباً محرضاً له على الحضور لنزل قدس وافر السرور ، فتيسر الأمر عليه وقدم والسعد بين يديه ، منتصف جمادى الثانى سنة ١١٤٩ مصحوباً بالتهانى . وأرسلت ولدى يستقبله فرحاً بقدومه ، واشتغلت بنظم أبيات ، أسميتها له غب الإتمام فسر بها ، وكانت ساعة التلاقى ميمونة . ومطلعها :

در كؤوسى من الرحيق الشهى ثم ثنى من العتيق البهى . الخ

ولما استقر به المقام ، وحل الرحاب منه ، سار ذكره كالمثل السائر ، وكنت أكتب فى شرح الهمزية ، المسمى (باللمح الفريدة العزية ، فى شرح القصيدة (الهمزية) ، فصرت مهما كتبت أعرضه على أسماعه ، وقلت :

عروسة صون بدا عطفها على صبها مذ هدا عطفها

وقابلت معه المعراج ، والمولد النبوى ، وشرعت فى أوائل شعبان فى مقامة يمنية ، وعرضتها عليه مقابلة فأحب أن ينسخها لنفسه ،وسميتها (العمامة اليمنية فى المقامة اليمنية) ، والحقت بها (المقامة الموسومة بالحمامة الورقا القصرية فى المقامة العنقا المصرية) وأتبعتها (بالصمصامة الهندية فى العمامة الهندية) وكنت وصفت (الكمامة النرجسية السندسية ، فى العمامة الأنسية القدسية) .

الختام :

ولما دخل شوال تحرك المحب الرحال السيد موسى الكريمى إلى السير ناحية (غزة) وطن الصبابة ، ونزل الأعزة ، فطلب الأخ الشيخ محمد التوجه صحبة المذكور ، إلى الوطن الأصلى المشهور ، فأردت إبقاءه إلى أن يقع لى الإذن بالذهاب ، ثم خشيت أن أطول عليه أدان الفراق ، والاغتراب ، لعدم ظهور وقت السير ، إلى تلك الديار ، على أنى كنت وعدت الرائر بالعود لديار صحبة الاهل والعيال وطول الإقامة فى جواره ، فرغب فى إنجاز الوعد ، فقلت لم يأت الإذن بعد ، وحصل التوجه أواخر شوال المطير بمياه الأشجان ، وخرجت معه للوداع إلى القرشى[1] والدجانى[2] . ولم يقسم له نصيب فى زيارة الكريم والخليل ، فقرأنا لهم الفواتح ، وحرضت الأخ على إظهار خفى الطريقة فى الديار المعزية والمصرية ذات الأطوار المبهجة ، وكان يوم الفراق لدغ حمة ولدغ إحراق . ولما رجعنا من وداعه بقينا أياماً فى توحش اجتماعه ، وما طال أمل الإذن بالتوجه إلى ذلك المنتزه النزيه وأقنا نتدارك أمر السفر إلى أوائل صفر ، واتضح لنا

(١) أبو عبد الله الولى القرشى دفن فى مأمن الله توفى ٩٩٩ ﻫ

(٢) القطب أحمد الدجانى جد العائلة الدجانية بالقدس ، وحارس مقام النبى داود ، توفى سنة ٩٦٣ ﻫ . ودفن فى مأمن الله ، وقبره قرب القدس ، وعلى كليهما قبة .